دكتور عبد الله عبد الدايم

مفاهيم مركزية حول الطليعة العربية



منشورات الطليعة



عبد الله عبد الدايم
بيروت 1961

مدخل

المادة الانسانية

الانسان . كلمة نلفيها أنى بحثنا ، وتطالعنا وراء كل مسألة او موضوع . فهي بحق مسألة المسائل ، وغاية المطاف لكل طواف .. وازمة الحضارة هي دوماً أزمة الانسان ، أزمة صيانته واحترامه وبنائه .. وراء كل حضارة كبرى انسان كان جديراً بحلها ، ووراء كل حضارة عراها السقوط او الانحلال انسان قصّر عنها وأفسد قطافها.

وكلما مضت العصور وخطت السنون استبان أكثر فأكثر شأن المادة الانسانية في كل ما له علاقة بحياة المجتمعات ونمو الحضارات . وأنى اتجهنا في ميادين الحياة المعاصرة ألفينا العنصر الانساني هو العامل الاول والاخير في النجاح أو الاخفاق .

يبحث الباحثون في شؤون العمل والصناعة ، فينتهي بهم المطاف الى اعتبار العنصر الانساني أساس النجاح فيها وجوهر النتاج . هكـذا قامت الدراسات تترى منـذ سنوات عديدة تحاول ان تعنى بتنظيم العمل الصناعي تنظيماً يؤدي الى زيادة النتاج فيه . وذهب في البداية من ذهب، الى تنظيم النتاج وزيادته في المصانع عن طريق فرض نظام في العمل يملى على العامل ليزيد من مردوده . فقرر أمثال « تايلور » الاميركي ان من الواجب ان نصل الى أكبر مردود ممكن عن طريق اقـل النفقات المادية الممكنة . ولبلوغ هذا المطلب ينبغي التوسل بوسائل ثلاث : الاولى ان نقسم العمل اجزاء يسهل القيام بها قياماً آلياً ، وان نجنب العامل بالتالي كل حركة زائدة لا فائدة منها، والثانية ان نفرض على العامل الحركات التي يستبين لنا ، بعد أن نجيـد تحليلها ، انها أكثر الحركات اقتصاداً ، والثالثة ان ننظم سرعة العمل لدى العامل استناداً الى التوقيت الزمني الذي نحصل عليه لدى أكثر الاشخاص سرعة . وقادت هـذه المبادىء كما نعلم الى نتائج خطيرة ، على رأسها طرح العمال الذين لا يصلحون لمثل هذا التنظيم ، او الذين لا

نصل الى ترويضهم عليه . وهكذا جرّ مثل هذا النظام الى إهمال الانسان ، بل الى امتهانه ؛ فطرح كثيراً من العمال وألقى بهم الى أقدارهم ، بعد سنوات من العمل المضني الشاق المفروض عليهم ، وبعد « اهترائهم » بنتيجة العمل على حد تعبير تايلور نفسه .

وأدرك الباحثون ، وعلى رأسهم علماء النفس وعلماء الاجتماع ، لدى تأملهم لنظام تايلور هذا ، مواطن الضعف في مثل هذا التنظيم ، حين لا يقيم وزناً للعامل ولا ينظر اليه نظرته الى انسان ، وحين يعده جزءاً من الاجزاء المكونة للآلة ، ما عليه إلا ان يسهم معها في ادارة عجلات الانتاج ، وان يدفع بأقصى ما يستطيع من نتاج لأصحاب رؤوس الاموال . حتى اذا قصّر عن هذا انتُزع كما تنتزع الآلات القديمة البالية وأغفل أمره تماماً .

أدرك علماء النفس وعلماء الاجتماع ، مخاطر هذا النظام حين يقلب الامور ، فيجعل الانسان مسخراً للآلة ، بدلاً من ان تظل الآلة في خدمة الانسان وسعادته ، وحين يجعل الانسان للآلة بدلاً من ان تكون الآلة للانسان . بل هم جاوزوا في دراستهم هذه الكشف عن مخاطر هذا النظام على الانسان ، وكشفوا عن جانب هام جديد ، وهو ان نظام العمل الذي لا يقيم وزناً للانسان وقدراته وحاجاته الجسدية والنفسية ، على نحو ما يفعل نظام « تايلور » لا يؤدي الى الاضرار بالعامل وحده ، بل

يؤدي الى الاضرار بمصلحة العمل والى نقصان النتاج نفسه في المعامل . وهكذا قادت تلك البحوث التي آثارها مثل نظام « تايلور » والتي أرادت ان تكيف المادة الانسانية وفق حاجات مادة الانتاج ، الى ادراك المسألة إدراكاً أعمق ، استبان من خلاله ان هذه المادة الانسانية التي يراد تكييفها مادة لها قوانين ، وان معرفة هذه القوانين ينبغي ان تفرض على كل من لا يريد استخدام هذه المادة استخداماً غير منتج . وبهذا انطلق علماء النفس في طريق جديدة : فبينوا ان النتاج لا يستقيم والغاية التي يرجوها رجال الصناعة لا تدرك : ما لم يقم وزن للفوارق القائمة بين البنى الفردية المختلفة ، وللصلة الوثيقة بين الكائن وبين الجهد الذي يطلب منه ، وما لم يقم وزن للقوانين العضوية والنفسية التي تحدد استجابات كل عمل وتنظم شكل هذه الاستجابات وطرازها وسرعتها .

وهكذا أخذ علماء النفس يحددون الشروط الانسانية التي يتم فيها العمل ، بغية الوصول الى تحقيق التكيف بين هذه الشروط وشروط العمل نفسه . فدرسوا البنية الفيزيولوجية للعامل ، ووقفوا عند التعب وآثاره وأسبابه ، ورسموا الخطوط البيانية لسير العمل لدى الانسان ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الشروط المادية والنفسية والاجتماعية التي ينبغي ان تتوافر ليكون نتاج العامل نتاجاً جيداً في كيفه وكمه . فبينوا مثلاً أثر الشرائط المادية الخارجية في

زيادة النتاج أو نقصانه ، وعلى رأسها الشروط الجوية من حرارة ورطوبة وتهوية وإضاءة وضجة . وكشفوا عن أثر الشروط النفسية : وأهمهـــا أثر تكرار العمل على وتيرة واحدة ، وأثر جو المصنع العام (من لون وموسيقى الخ ..) كذلك وقفوا عند الشرائط الاجتماعية مبينين أثر العوامل العاطفية والمنزلية ، متجاوزين هذا الى أثر الاجور وأنظمة الترقي والمكافآت وغيرها من المشكلات الاقتصادية ، معرّجين من وراء هذا كله الى دور المشكلات الاقتصادية العامة كالثبات في العمل وفترات البطالة وتقلبات تكاليف الحياة . بل هم تعدوا هذا كله الى أثر الصلات بين العمال المختلفين ، ثم بين العمال وأرباب العمل او المعلمين ،والى أثر إسهام العمال في ادارة المعمل وغير تلك من المشكلات الاجتماعية الهامة ، التي استبان أثرها الكبير في حسن سير العمل وزيادة نتاجه .

ولا حاجة بعد هذا الى ان نشير الى ما قاموا به من دراسة للعوامل النفسية والاجتماعية التي تؤدي الى وقـــوع الكوارث ، وما وصلوا اليه من ضرورة الاخـــذ بدراسة علمية لقابليات العمال قبـــل انخراطهم في العمل ، بغية توجيههم شطر الاعمال التي هم لها أهيأ . فمن الامور التي غدت بدهية ، بعد وثبة دراسات علم النفس الصناعي ، ما يلعبه التوجيه المهني من دور كبير في حيـــاة العامل . وحسبنا ان نشير الى ان هذا التوجيه المهني ، حين يعنى

بدراسة قابليات الافراد بغية توجيههم نحو الاعمال التي تهيئهم لها هذه القابليات وحين يجعل كل انسان ميسراً لما خلق له ، يؤدي هدفين متلازمين : اولهما خدمة العامل نفسه عن طريق توجيهه شطر عمل يصيب فيه النجاح ويصيب فيه السعادة بالتالي ، وثانيهما خدمة العمل والنتاج بفضل ما يؤدي اليه اختيار العمال المناسبين للاعمال المناسبة من اثر في تحسين مردود العمل كيفاً وكماً ومن اجتنابٍ للنتاج الرديء بل من تخفيفٍ من عدد الكوارث .

وهكذا كشفت هذه الدراسات عن أمر اساسي فيه كل الصيد ، وهو ان زيادة نتاج العمل في المصانع وغيرها لا يتم إلا اذا عنينا بالعامل ، بالعنصر الإنساني . وبمقدار عنايتنا بهذه المادة البشرية نصل الى تحقيق مصلحتها ومصلحة العمل في آن واحد . وليس ثمة انفصال بين العمل والعامل ، ولا يمكن وضع أي تخطيط مجدٍ للعمل دون ان نأخذ بعين الاعتبار كيان العامل واحترامَ بنيته الجسدية والنفسية . فالعامل لا الآلة هو محور العمل وجوهره . وصيانتنا للعامل هي التي تؤدي الى صيانة الآلة ونتاجها .

٢

على ان الدراسات الحديثة لم تقف عند هذا الحد ،

ولم تصل الى هذه النتائج وحدها فيما يتصل بالصلة الوثيقة بين العامل والعمل ، وبأثر العنصر الانساني في كل نتاج . لقد جاوزت الدراسات اليوم هـــذه الحدود ، لتبين بياناً اوضح أثر هذه المادة الإنسانية ودورها الكبير في النتاج ، وبالتالي في مستوى الدخل القومي وشأو الحياة الاقتصادية في بلد من البلدان . لقد أفصحت هذه الدراسات المحدثة عن امر خطير ينعكس صداه في كل مجــال من مجالات حياة الإنسان ، ولا يقف عند حدود الانتاج الاقتصادي . ذلك انها كشفت عن اثر الروح المعنوية التي يحملها العامل ، في زيادة نتاجه :

وابرز الدراسات التي تعرضت لهـذا الموضوع الخطير الدراسات التي قامت في الولايات المتحدة الاميركية . لقد ادرك علماء النفس وعلماء الاجتماع والاقتصاديون وارباب العمل ، ان زيادة النتاج الصناعي يخضع لتقلبات جديرة بالعناية ، وقمينة بأن تعرف اسبابها . وأدركوا خاصة ان فترات الحروب وفترات الأزمات القومية الكبرى ، كانت تؤدي الى زيادة في النتاج الصناعي . وقدروا بنتيجة هذا ان ارتفاع الروح المعنوية لدى العــمال بسبب شعورهم بالاسهام في معركة قومية تعنيهم اهدافها ، هــو العامل الاساسي في مثــل هذه الزيادة . ومن هنا قامت بحوث طويلة المدى للكشف عن اي العوامل هو الراجح في زيادة مردود العمل الصناعي وغيره . وجرت هذه الابحاث تحت

إشراف بعض المؤسسات الصناعية الكبرى من مثل مؤسسة « جنرال الكتريك » واستمرت حوالي سبعة عشر عاماً ، استبان بعدها ان العامل الاساسي في زيادة مردود العمل ، ما هو تحسين الظروف المادية او النفسية للعمل ، على نحو ما كان سائداً من قبل ، ولا سيما بعد ابحاث علماء النفس الاولى التي اشرنا اليها ، وإنما هو الروح المعنوية التي يملكها العامل هذه الروح المعنوية التي ترتد الى اسباب كثيرة ، على رأسها ايمان العامل بأهداف الانتاج ، وربطه بين هذه الاهداف والاهداف القومية الكبرى التي يدين بها .

وهكذا استبانت بنتيجة الدراسة الطويلة ، وبنتيجة الارقام والاحصاءات الدقيقة ، حقيقة كان يقدرها كل باحث من قبل ، ومن السهل على اي انسان ان يدرك خطورتها ، وهي ان الروح المعنوية التي يملكها العامل هي التي تلعب الدور الجبار في مردوده ، وان الايمان بالهدف ، ايمان كل فرد بالهدف الذي يعمل له ، يظل المقوم الاساسي لكل نتاج ولكل جهد .

ومن هنا تؤكد النتائج التي توصل اليها الباحثون في العمل الصناعي النتائج التي انتهت اليها الدراسات والملاحظات في كل ميدان من ميادين حياة الانسان . انها تقرر مرة أخرى ، وبلغتها الخاصة ، ان الايمان بالهدف اساس كل نجاح ، وان الروح المعنوية لا تعبأ الا بنتيجة ايمان كل

انسان بأهداف ما يعمل ، وان الأمم لا تقوى على ان تستخرج من افرادها كامل طاقاتهم وتمام إبداعهم الا اذا كانت لها اهدافها الكبرى التي يؤمن بها هؤلاء الافراد ويعملون من اجلها .

لقد تحدث « دوستويفسكي » عن اسوأ ما يمنى به الانسان ، فبيّن ان ابشع مصير يفرض عليه ان يقوم بعمل لا غاية له او لا يشعر بغايته ، ان يقوم بعمل لا معنى له ، عمل يراه ضرباً من العبث . وقد أشار الى هذه الفكرة في معرض حديثه عما كان يتعرض له في السجن من اعمال لا تهدف الى غاية . فكان يطلب اليه مثلاً مع غيره من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ان ينقلوا حجارة من مكان الى آخر ، وان يعودوا بها بعد ذلك الى حيث كانت ، وان يكرروا هذا العمل الباطل مرات ومرات . ويصيح دوستويفسكي بأن اكبر امتهان للانسان واشد ما يفتك في انسانيته ويقتلها ، مثل هذه الاعمال العابثة التي تفرض عليه ، وان مثل هذا الامتهان قد لا يراوده لو انه ينقل الحجارة مثلاً ليبني بها بيتاً . ان الانسان كائن ذو قصد ، واعماله تمتاز بأنها اعمال هادفة ، ومصير الانسان انه يبحث دوماً عن اهداف لاعماله وحياته ، ومأساته انه لا يهتدي الى مثل هذه الاهداف دوماً . او لم يشر الكاتب الفرنسي « البير كامو » الى مأساة الانسان العميقة ، حين يكتشف ان حياته عبث ، وان ما يقوم

به اشبه بما كان يقوم به « سيزيف Sysiphe » فيما تروي الاسطورة اليونانية ، يوم حكمت عليه الآلهة بأن ينقل حجارة من أسفل الجبل الى اعلاه ، حتى اذا قاربت الاحجار الذروة تدحرجت وعادت ادراجها ليعاود البائس التعيس نقلها من جديد كرة بعد كرة ، وليدور في ضرب من الدور الفاسد الذي لا يعرف له حداً او نهاية ؟

اجل ان مأساة الانسان الكبرى الا يجد لحياته هدفاً وألا يجد لأعماله غاية . ومن هنا كانت نقطة البداية في احترام الانسان وتحقيق سعادته ، ان نستجيب لهذا المطلب الانساني الأصيل لديه ، مطلب الاتجاه نحو هدف والعمل في سبيل غاية .

٣

وتلتقي نتائج هذه الدراسات التي قامت في حقل الصناعة مع الدراسات التي تمت في كل ميدان . تلتقي بالدراسات التي قامت مثلا في ميدان علم النفس الحربي ، والحرب النفسية . اذ تبين هذه الدراسات كرة اخرى ان اهم عوامل النجاح في الحرب النفسية هو العامل الانساني ، هو الروح المعنوية للجندي ، وان ابرز العناصر التي تلعب الدور الكبير في تعبئة الجندي وتزويده بعقيدة القتال

والنضال ، ان تتحق هذه الروح المعنوية العالية لديـه ، وذلك عن طريق امرين اساسيين : اولهما الايمان بالهدف ، وثانيهما الايمان بالقيادة . انها توضح ان العوامل الاخرى ، من مادية ونفسية قد تلعب بعض الدور في المعارك ، غير ان الدور الحاسم يظل دوماً وابداً لهذين العاملين الكبيرين : الهدف والقيادة . فهما اللذان يجعلان المادة الانسانية مادة فعالة قادرة على الاتيان بالمعجزات . وليس ثمة قوة تعدل تلك الطاقة الجبارة التي تثور في نفس الانسان عندما يؤمن بعمله ، وعندما ينقلب العمل عنده الى رسالة ، وعندما تقترن هذه الرسالة بمعنى الحياة لديه وتغدو مبرر وجوده على الارض .

وما يصدق على العامل والجندي ، يصدق على كل فرد في أمة . وكل شيء في حياة الأمم ينطق بهـذه الحقيقة الصارخة ، وهي ان البنية النفسية للافـراد هي العامل الاول والأخير في حضارتها ونهضتها ، وان هـذه البنية تشتد وتقوى عندما يتضح الهدف وتشرق الغايـة ويتفجر الايمان . وليس ثمة شيء يقود الافراد في أمة من الامم الى عمل جبار دائم ، كالايمان بالهدف ، وكالايمـان بالقيادة . والتاريخ يحدثنا عن هذه الحقيقة حديثاً لا يحتاج الى فضل من قول . فالمعارك الكبرى في التاريخ ربحهـا اصحاب الرسالة المؤمنون بغايتهم المؤمنون بقيادتهـم . والبناء الحضاري الشامخ في اي عصر او مصر اضطلع به

أناس آمنوا بالإنسان ورسالته وآمنوا بأمتهم ورسالتها . وهل بعد تاريخ العرب من حديث افصح قيلاً ؟ هل بعد رسالة الاسلام وما صحبها من ايمان بالهدف والقيادة من دليل يُقدّم على اثر الروح المعنوية السامية في حياة الأمم ونهضتها ؟

أو نحن في حاجة بعد هذا الى ان نشير إلى آراء مثل « توينبي» حول نشأة الحضارة ونموها وسقوطها وانحلالها مبينين معه ان التقدم الصناعي او الاقتصادي او غيره من ضروب التقدم التكنيكي ، ليست هي العوامل الأساسية في نشأة الحضارات ، وانما هي نتائج لولادة الحضارات هذه الولادة التي لا تتم الا بفضل مخاض روحي عميق ، بفضل عمل الانسان الخلاق ، بفضل « اعتكاف » فرد او أفراد لتحقيق الصفاء الذاتي واستلهام الحق و « العودة » لهداية الاتباع وتوجيههم ، على حد تعبيره .

او نحن في حاجة الى ان نقرر معه ان من اهم أسباب السقوط الحضاري ضعف الايمان بالقيادة نتيجة لضعف القوة الخلاقة فيها ؟ يقول « توينبي » : « عندما تنحط الاقلية الخلاقة في تاريخ اي مجتمع من المجتمعات لتصير اقلية مسيطرة تحاول ان تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله ، يقع تبدل هام في طبيعة العنصر القائد الحاكم يحفز البروليتاريا (الاكثرية) على الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب إليه ومحاكاته ، ويدفعها

استكراهها على طاعته والمنزلة الوضيعة الجافية التي انزلها فيها الى الارتداد عليه والثورة ضده .. وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النمو الحضاري منقسماً على ذاته انقسامات حادة ولا منفصلاً عن جيرانه بأبعاد لا يمكن عبورها [1] . لسنا في حاجة الى هذا كله لنؤكد ما قلناه من ان الامم تحيا بشيئين : الايمان بالهدف والايمان بالقيادة ، وتتداعى اذا تداعى هذا الايمان المزدوج .

ان مدى بناء العنصر الانساني في كل امة ، بناءه عن طريق الايمان بالهدف والثقة بمن يقود الهدف الى شاطئه ، يظل المهمة الحضارية الاولى التي يقاس بها تقدم المجتمع وتوثبه وقدرته على حمل رسالة حضارية .

---

1 دراسة في التاريخ ج ٤ ص ٦ . نقلا عن كتاب التاريخ الحضاري عند توينبي ، تأليف منح خوري ، نشر دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ص ٤١ .

الفرد والمجتمع

ان تقريرنا للحقيقة التي انتهينا اليها ، قد يقودنا إلى دور فاسد ، ان لم نزدها تحليلاً وتوضيحاً .

لقد وصل بنا البحث الى ان المجتمعات لا تستطيع الحياة الا بفضل العنصر الانساني الذي اكتملت بنيته وعبأ نفسه في سبيل هدف وغاية وآمن بالذين يقودونه الى هذا الهدف والغاية . ولكن من حقنا ان نقرر في مقابل ذلك أن هذا العنصر الانساني لا يكتمل بنيانه ولا يتجه شطر اهدافه الا ضمن مجتمع ييسر له مثل هذه المطالب ويضعه في الهواء الذي يساعد على تحققها . وإذ ذاك نلفي انفسنا امام دور فاسد كالدور الذي أشار اليه الشاعر بقوله :

مسألة الدور جرت بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشب

فما السبيل الى الخروج من هذا الدور الفاسد ؟ وأين نكسر هذه الحلقة الدائرة على ذاتها ، وأين نجد المنطلق الفعال الخصيب ؟

إن هذه المسألة تضعنا وجهاً لوجه أمام أمر لا بد من توضيحه ، ومن شأنه ان يسعفنا لا في حل هذه المشكلة التي تعنينا الآن فحسب ، بل في حل كثير من المشكلات والشكوك حول الحياة الاجتماعية وتطور الافراد والجماعات.

ونقصد بهذا الأمر الحديث عن حقيقة الصلة بين الفرد والمجتمع . وقد يتراءى هذا الحديث للوهلة الاولى حديثاً معاداً مكروراً . والحق إنه مكرور بمعنى من المعاني ، غير انه في واقعه ما يزال بكراً عندنا الى حد كبير .

وأول شيء نود ان نقرره في هذا السبيل ان الفرد لا يكون من هو ولا يؤدي رسالته كانسان ، الا عن طريق اندماجه بالمجتمع ، غير انه في الوقت نفسه لا يكون من هو ولا يحقق وجوده الإنساني في كامل مداه اذا لم يجاوز المجتمع . وهذه الفكرة المتناقضة في ظاهرها هي جوهر ما نود جلاءه ، لأنها عندنا قوام اي بحث صحيح في الصلة بين الفرد والجماعة .

ان الحقيقة الأولى التي لا يماري فيها اثنان ، ان الفرد ابن مجتمعه ، وأنه لا يتكون وينمو ويكتمل الا عن طريق تمثله لحياة مجتمعه . فالانسان في بداية حياته كائن عضوي بيولوجي ، ولا يتم له الانتقال من هذا الوجود الجسدي الحيواني الى حد كبير ليتجه شطر الوجود الانساني العامر بالفكر والروح ، الا عن طريق التربية التي يقدمه لها مجتمعه ، حين ينقل اليه ارثه من المعارف والتجارب والعادات المادية والروحية ، أي حين ينقل اليه طراز حياته من جهة ونظرته الى الوجود من جهة ثانية . والهوة الكبيرة التي تفصل بين الانسان الراشد والحيوان الراشد هي الحياة الاجتماعية .

ومعنى هذا كله أنه لا يقوى أي فرد ان يبلغ بنفسه وبقواه وحدها المراتب العليا من الحياة الروحية الانسانية. ولا بد في هذا من الحياة الاجتماعية التي تقوم في منزلة وسطى بين الحياة الجسدية الخالصة التي يكون عليها الفرد حين ولادته، وبين الحياة الروحية التي يريد أن يبلغها. وهي تقوم في مقــام وسط بينهما كوسيلة للتخلص من الأولى وبلوغ الثانية. وهكذا يجد الفرد نفسه مزوداً بقوى ليست هي نقط قواه الذاتية المشغولة بعمليات الحياة البيولوجية، وانما هي خاصة جميع الوسائل الخارجية التي تقدمها له الأجيال العديدة التي سبقته. ومن هنا نرى أن نمو الفرد الروحي لا يتم الا عن طريق اندماجه بحياة مجتمعه، عن طريق تصيّره [1] للمثل العليا والقيم الروحية والعادات الخلقية الثاوية في ذلك المجتمع.

ان كل فرد ابن مجتمعه وابن تراث هذا المجتمع. انه يغتذي من تربته الروحيــة ويتنفس هواءه الفكري. وانسانيته لا تتفتح الا بمقدار انغماسه في تلك التربة وامتصاصه لذلك الهواء. وههنا نجد عابرين أساس كل فكرة قومية. فأساس الإيمان القومي حقيقة واقعة، وهي أن كل إنسان وليد التراث الاجتماعي القومي الذي يحيا فيه، وأنه لا يكون من هو الا اذا اغتــذى بهذا التراث وتصيّر صفاته وأن تربته القومية هي سبيل تفتح انسانيته.

غير ان علينا ان ندرك بعد هذه الحقيقة الأولى البدهية التي قررناها، وهي ان الفرد لا يكون من هو الا بعد

---

1 — تصيّر الشيء أي تشبه به وصاره اياه. وفي تهذيب الألفاظ لابن السكيت: يقال تصيّر أباه اي أشبهه.

اندماجه في مجتمعه ، أن هذا الاندماج مع المجتمع أشكال متدرجة ، لا تتصف جميعها بقيمة انسانية روحية واحدة، وان ندرك بعد هذا أن ذلك الاندماج ولو نظرنا اليه في أعلى صوره لا يكفي لتحقيق النمو الكامل للإنسان ولإيصاله الى كامل تفتحه .

نقول أولاً ان الاندماج بالمجتمع أشكال ومراتب متدرجة . ويمكن أن نلخص هذه المراتب على النحو التالي:

١ – المرتبة الدنيا هي مرتبة الاندماج مع المجتمع اندماجاً مشخصاً محسوساً. وهذا الاندماج يشتمل على جانب كبير من العلائق الجسدية العضوية ، ولم يرق بعد الى مستوى الاندماج الفكري والروحي . ذلك أنه يقتصر على العلاقات الاجتماعية المباشرة الضرورية لحياة الانسان المادية. وهو بالتالي ما يزال في مستوى العمل الخالص والحاجات المباشرة والمتعة الراهنة ، لم يجاوز بعد التجربة العملية والفكر العملي الخالص .

ونقع على هذا الشكل من الاندماج لدى المجتمعات المتخلفة حضارياً التي لم يجاوز أفقها أفق بقائها وحياتها المادية المباشرة .

٢ – والمرتبة الثانية مرتبة وسطى ، هي مرتبة الاندماج مع المجتمع اندماجاً روحياً مجرداً فيه تحرر من النجع العملي المباشر . والصفة الأساسية الملازمة لهذا الضرب من الاندماج صفة اكتشاف التاريخ والتعلق به .

فالمجتمع فيه يخرج من الحاضر المباشر ليجد نفسه وجوداً أكثر انسجاماً ، في تاريخه في مجموع تطوره ، وليلفي نفسه في أجداده وتراثه وأرضه وأمواته .

ونجد هذا الشكل من الاندماج لدى المجتمعات التي تملك ماضياً وتاريخاً وحضارة ، ما تزال على اتصال بها واغتذاء منها .

٣ – والمرتبة الثالثة التي تربو على المرتبة السابقة قليلاً ، هي مرتبة الاندماج الاجتماعي الحضاري . وهي المرتبة التي يتفتح فيهـا المجتمع لا على ماضيه هو فحسب ، بل على ماضي الآخرين وتراثهم ، فينتقل عبر الجماعات الأخرى، نتيجة لتعرفه على ماضيه وتراثه . ذلك ان المجتمع لا يخرج من حاضره المبـاشر ليتعرف على ماضيه دون ان يلتقي بمجتمعات اخرى امتزج تاريخها بتاريخه ، ودون ان يقيم معها صلات تقوده الى اكتشاف قيم انسانية مشتركة بينه وبينها . وعند ذلك يدرك المجتمع نفسه من خلال هذه القيم المشتركة ، ويدرك بالتالي أنه ليس سوى لحظة من عمل الحضارة الإنسانية عامة . وهكذا يصل الاندماج الى ذروته المثلى ، نعني الى مرتبة الاندماج الروحي الخالص ، وذلك عن طريق تمثل الفرد للحضارة الإنسانيـة الشاملة بوساطة تمثله لحضارة مجتمعه .

ومعنى ذلك ، بقول موجز ، أن الاندماج في المجتمع لا يكون اندماجاً مكوِّناً للفرد محققاً لوجوده ، الا اذا

رقي من مستوى الاندماج العملي المباشر الى مستوى الاندماج الروحي الحضاري .

غير ان الأمر لا يقف عند هذا الحد ! ولا يكفي كما قلنا ان يندمج الفرد مع مجتمعه هذا الاندماج الكامل كيما يتحقق وجوده الإنساني كاملاً مليئاً . وههنا ننتقل الى الشطر الثاني من الفكرة التي قررناها منذ البداية، نعني القول بأن الفرد لا يكون من هو الا اذا تجاوز المجتمع . غير أن حديثنا عن مراتب الاندماج بالمجتمع ، واشارتنا الى المرتبة العليـــا فيها ، نعني مرتبة الاندماج الحضاري الروحي ، يبينان لنا أن هذا التجاوز للمجتمع خطوة أخرى تتم عن طريق المجتمع نفسه . وان كانت في نهاية الأمر تتجاوزه . إنها منه وفوقه في آن واحد . أنها تستند اليه لترقى فوقه ، وتتكىء على دفعته لتقفز فوقها .

ذلك ان الكائن الإنساني لا يغدو من هو الا شريطة ان ينغمس في العنصر الاجتماعي. غير انه لا يغدو من هو ايضاً الا شريطة ان يسيطر على هذا العنصر الاجتماعي.فالكائن الإنساني كائن روحي قبل كل شيء ، وقوامه الأصيل القيم الروحية المشتركة بين بني الإنسان . وهدف التطور في حياته ان يبلغ أسمى مراتب التفتح الروحي ، وان ينقذ « جوهره الانساني » حيال الحوادث الظاهرة .

والمجتمع لا يوصل وحده الى هذا التفتح الروحـــي والانساني الكامل للفرد لأسباب ثلاثة أساسية :

١ — الاول ان المجتمع ، في مجموعـــه وأكثريته ، اميل الى المحافظة . وهدفه في معظم الاحيان الابقاء على

النموذج المكون له : نموذجه الجسدي (بنيته وطراز حياته) ، ونموذجه القانوني (مؤسساته ونظمه) ، ونموذجه النفسي (معلوماته النظرية ومعتقداته العملية) . والمجتمع غالباً ، قبل ان يبحث في ان يتغير ، يبدأ بأن ينقل الى افراده العناصر الثابتة في طبيعته .

٢ ـ والثاني ان المجتمع ، في حال تجاوزه لذاته وانقلابه على الكثير من عاداته وقيمه ، كما في فترات الثورة والازمات الحضارية الكبرى ، يحتاج الى طليعة تفصح عن هذا التجاوز وتعبر عن تلك الاحاسيس التي بدأت تتكون في قلب المجتمع ، احاسيس التغير والانقلاب. وهذه الطليعة حين تعبر عن الدوافع الكامنة في المجتمع ، لا تقوم في الواقع بمجرد نقل لها وانقياد وانما تقوم بخلق جديد لها ، من خلال مبادىء روحية فردية . ومن خلال اعتكاف روحي عميق ، يجاوز المجتمع ويرقى فوقه .

ان تبني بعض الاهداف المجددة التي تشتعل تحت الرماد في مجتمع من المجتمعات لا يكون الا عندما يربط الافراد الافذاذ بين هذه الاهداف وبين القيم الروحية الانسانية ، وعندما يأخذون هذه الاهداف بالتالي على عاتقهم ويقومون بها ، لا لانها احاسيس مجتمعهم الدفينة فحسب ، بل لأنها ما يؤمنون به من قيم . ومثل هذا الهضم لقيم المجتمع الجديدة هضماً يجعل منها عملاً مبدعاً يقوم به الافراد ، لا عملاً اتباعياً ينقادون اليه ، هو عين التجاوز الخلاق للمجتمع . وكل فرد يتجاوز مجتمعه حين يضع قيم هذا المجتمع ، جديدها وقديمها ، موضع البحث الشخصي ،

موضع تمحيص يقوم به بينه وبين نفسه ، وحين يعرض هذه القيم على محك المبادىء الانسانية المثلى . وسواء انتهى بنتيجة هذا التمحيص الشخصي الى تبني قيم المجتمع او الى معارضتها ومحاولة تغييرها ، يظل مجاوزاً للمجتمع ، لأن هذا التمحيص الشخصي ، من خلال المبادىء الروحية المثلى ، خلق جديد ، وابداع لا اتباع .

٣ – والثالث ان الانسان ، والانسان وحده ، هو الذي يحقق وحدة النظام الاجتماعي ، عن طريق تحقيقه لوحدته هو اولا . وهذا التحقيق للوحدة والتوازن ، يتم خاصة عن طريق الموقف السليم الذي يقفه من قيم مجتمعه الماضية ومن القوى الجديدة التي تتجاذبه وتدفعه الى تغيير مجتمعه . فتقاليد مجتمعه القديمة مذيبة لشخصيته ان استمسك بها وحدها ، لأنها تعزله عن حاضره ، تعزله عن الحياة . غير ان القوى الجديدة ليست اقل خطراً عليه ، اذ انها لتعقدها وتبانيها تتجاذبه من كل جانب وتدعه نهباً مقسماً . ولا بد له اذا اراد بلوغ التوازن ان يسيطر على كل من القديم والجديد سيطرة تتجاوزهما ، عن طريق موقف روحي اصيل وعن طريق وعي انساني بديء . لا بد له ان يعتمد على الماضي ليقاوم تجزيء الحاضر له ، ولا بد ان يتجه بعزيمة وقوة شطر الحاضر ليتحرر من الماضي . وعند ذلك يعلو فوق كليهما .

ومثل هذا الموقف الأصيل لا يتم الا لمن يستطيع ان يتجاوز مجتمعه ، ليعود اليه عوداً أقوى وأوضح . انه لا ييسر الا لمن استطاع بوعيه الروحي الفكري ان يمحو

المجتمع الى حين ، ليزداد فهمه لهذا المجتمع وليتخذ منه موقفاً سليماً مبدعاً .

وهكذا يستبين لنا في نهاية الامر ، ان تفتح الفرد تفتحاً انسانياً كاملاً لا يتم الا اذا علا فوق المجتمع ، واستطاع ان يحكم عليه من بعد ، وعرف ان يضع قيم هذا المجتمع ومثله موضع التساؤل ليأخذها من جديد على عاتقه او ليطورها .

وبهذا المعنى لا يكون الانسان من هو الا اذا تجاوز مجتمعه ، ليتصل بمجتمع الوعي الانساني الشامل ان صح التعبير . والاتصال الحقيقي بالمجتمع اتصالا مبدعاً خلاقاً لا يكون الا بعد الانفصال عنه ، الانفصال عنه بالوعي والفكر الى حين ، من اجل لفه بوعي شامل يحدد اهدافه وقيمه . ذلك ان هدف الانسان لا يمكن ان يكون اولا وآخراً تفتيح طاقته الطبيعية ، ولا دمجه في بيئة اجتماعية معينة ، وانما هو في اعماقه بعد هذا وفوق هذا ، الرقي به الى جوهره ومصيره ، الذي هو مصير روحي قبل كل شيء .

وخلاصة هذا كله ان المجتمع والافراد في تأثر وتأثير متبادلين . فالفرد لا يستطيع ان يرقى الى وجوده الروحي الاصيل دون ما عون المجتمع ، والمجتمع في نهاية الامر حين يدفع الفرد في طريق نموه الروحي ، يمده بالقدرة على تجاوزه ، ويحمله بذلك بذور ارتقائه فوقه بل خروجه عليه عند الاقتضاء . ان المجتمع حين يطلق الشرارة الاولى لدى الفرد ، شرارة الوعي الفكري ، يطلق شعلة

لا تعرف الحدود ، كثيراً ما تعلو على اسبابها وعلاتها ، لتطل عليها من جديد من أفق العالم المبدع الذي سمت اليه .

ومن هنا نفهم دور المجتمع في بناء الافراد فهماً سليماً ، كما نفهم دور الافراد في بناء المجتمع مثل هذا الفهم . ومن هنا نخرج من الدور الفاسد . فالمجتمع شرط لازم لبناء الفرد ، غير انه غير كاف . والفـرد حين يستمد الطاقة الروحية من مجتمعه ينفتح بذلك على أفـق الحرية ، ويخرج من الاتباع الى الابداع ، ويغدو خالق المجتمع بعد ان خلقه .

وهكذا يستبين لنا في نهاية المطاف دور الافراد الذين عرفوا هذا التفتح الروحي في بناء المجتمع ورسم اهدافه . وهكذا نعود من جديد الى حيث بدأنا لنبين ان هذا البناء النفسي المرجو للانسان ، لا بد ان تضطلـع فيه ضمن المجتمع الطليعة الواعية التي استطاعت ان ترقى الى مراتب الوعي الروحي التي وصفناها .

المجتمع والطليعة

هكذا يتضح لنا اذن ان المجتمع في جوهره قـوة محافظة واتبـاع ، غير انه يحمل في جوهره هذا بذور تجاوزه واكمال رسالته . انه في جملته مجموعة من القيم التي خبرتها الأجيال السابقة والتي يريد ان ينقلهـا الى الاجيال اللاحقة ويمرسها بها . غير انه اذ يفعل هذا يزود الاجيال الجديدة هذه بوسائل انقلابها عليه، لا سيما عندما

يكون مجتمعاً حضارياً رقي الى مستوى الحضارة الانسانية المشتركة .

ومهما يكن من امر المآخذ التي يمكن ان تؤخذ على نظرية الاجيال الاجتماعية المتتالية ، ومهما يكن صحيحاً ان الاجيال الانسانية المتتالية تتداخل الى حد كبير في المجتمع الواحد بحيث لا نستطيع أن نقيم حدوداً قاطعة بين جيل وجيل ، يظل من الممكن مع هذا ان نتحدث عن الحال النفسية والروحية لجيل من الاجيال ، وان نصنف الحياة الاجتماعية تصنيفاً تقريبياً مستنداً الى فكرة الاجيال النفسية والروحية هذه . وقد يكون السبب الاول الذي يتيح لنا مثل هذا التصنيف ان بنية معظم المجتمعات مكونة بحيث يصل فيهـــا الناس في سن واحدة تقريباً الى ان يمسكوا بمراكز القيادة في مختلف الميادين والى ان يكون لهم الأثر الراجح في مختلف فروع النشاط الاجتماعي، وقد جعل افلاطون هذه السن في « جمهوريته » سن الخمسين ، وعدها السن التي يبلغ فيها الفيلسوف طور السلطة والحكم .

هكذا نرى أن للحياة الاجتماعية إيقاعاً ولحناً ثابتاً الى حد كبير : فهنالك ، في كل مجتمع ، الاطفال والمراهقون الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد والنضج والذين تنصب عليهم تربية المجتمع وعنايته من اجل إيصالهم الى حـــال الرشد هذه ؛ على نحو ما يفهمها هذا المجتمع . وهنالك ، بعد هذا ، الراشدون الذين يبدأون بممارسة وظائف سن النضج حوالي الخامسة والعشرين من العمر . وهنالك أخيراً الكهول

الذين يبدأون بممارسة السلطة على الجيل الذي يليهم حوالي الخمسين من العمر . وطبيعي ان ينظر كل جيل من هذه الاجيال الثلاثة في المجتمع الواحد نظرة خاصة الى الوجود ، وان يحكم على قيمة التربية التي تلقاها من الجيل الذي فوقه على ضوء تجربته في الحياة . فاذا كانت هـذه التجربة موفقة سعيدة ، رجا للجيل السابق بقـاء القواعد والنظم الاجتماعية التي أدت الى ازدهاره . واذ ذاك يغدو محافظاً وهذه هي الحال الغالبة . اما اذا كانت هذه التجربة التي أصابها في الحياة أقل توفيقاً حاول ان يقوم بالاصلاحات التي كان في وسعها ان تهب له نفسه الصفات التي يشعر بأنها تعوزه . وفي الحالين من النادر ان يملك من الخيال والتجرد القدر اللازم لكي يريد للجيل الجديد مبادىء تلبي حقاً تطلعاته وحاجاته المقبلة . يضاف الى هـذا ان أثر الجيل المالك للسلطة لا يقع على الجيـل الذي يليه مباشرة وانما يقع على الجيل الناشيء الصغير . وبدهي ان يخالف الجيلُ الصاعد الجيل السابق لأنه يطمح أولاً في ان يحل محله ، ولأن الشبيبة بعد ذلك ترى من بعيد حاجاتها المقبلة لا ذكرى حاجاتها الماضية كما يفعل الشيوخ . ولهذا تشعر بالرغبة في توكيد استقلالها وشخصيتها تجاه « القدماء » وفي التخلص من دروسهم . فهي إذن نزّاعة بطبعها الى التجديد. وعندما يلتقي هذا الجيل الناشيء ببنية اجتماعية في حال الانحلال والتفسخ ، يزيد في تدهورها وانحلالها . ولهـذا كانت الثورات الاجتماعية من عمل جيل الشباب دوماً ، حين يحاول هـذا الجيل إسقاط الجيل السابق . أولم تكن

أعمار قواد الثورة الفرنسية حوالي الثلاثين من العمر او دون ذلك : أولا نجد الظاهرة نفسها في الثورات الفاشية او النازية : أولا نجد مثل هذا في الثورات العربية حديثها وقديمها ؟

هذا اذا نظرنا الى الامر من وجهة مقتصرة على الاعمار . غير ان في وسعنا ان نضيف الى وجهة النظر هذه وجهة نظر ثانية، فنبين ان الرسالة الطبيعية التي تتلاءم مع المرحلة النفسية للشباب ، هي رسالة التجديد والدفاع عن المثل العليا والقيم الانسانية الخالدة . أفلا نلفي ههنا صفات ثابتة تعرف بها سن اليافعين [1] أي السن التي تقع بين خاتمة طور المراهقة وبداية سن الرشد ؟ لن نعاود هنا الحديث عن الملامح النفسية التي تتبدى لدى اليافعين ، ونكتفي منها بتلك القسمات التي تتصل بالاهتمامات الروحية التي هي موضوع بحثنا . فمن الامور التي كشفت عنها دراسة اليافعين ان هذه الفترة تتفتح عن قدرة على التفكير الشخصي الحر، وعن ارادة يقوم بها الكائن ليكوّن بنفسه نظرة الى الوجود خاصة به . حتى اننا نستطيع ان نقول ان اهتمامات اليافع تصبح بالدرجة الأولى اهتمامات روحية بعد ان كانت اهتمامات نظرية مجردة في طور المراهقة . انها تستهدف الثقافة كثقافة ، وتبحث عن العلم المحض ، عن الأدب والفن المجردين عن اية غاية عن الدين والفلسفة ، وبكلمة واحدة عن كل القيم الإنسانية الحقة المتحررة من علائق التجربة المحدودة ، بحيث تتبدى وكأنها فقدت طابعها

الاجتماعي وتجاوزت اصولها الاجتماعية . ان الكائن في هذه المرحلة يتابع نزوعه الى المطلق الذي عرفه في طور المراهقة ، غير ان هذا المطلق الذي يصبو اليه في طوره الجديد لم يعد مطلق عصر من العصور او بلد من البلدان ، ولا يأتيه بالتالي من خارجه ، وانما ينبثق من داخله ، اذ يحاول ان يكوّن يقينه بنفسه ، وان يكون اليقين من صنعه هو . ان اليــافع في هذا الطور يريد ان يتشبه بالمثل الاعلى ، بصورة الكمال ، بالإله . وفيه يصدق قول « بول فاليري Paul Valery » : ان الإنسان الذي لم يحاول ابداً ان يتشبه بالآلهة ، هو أقل من انسان . أو لم يخلق الله الإنسان على صورته ؟

ونجد ملامح هذا النزوع الى القيم الإنسانية لدى اليافع لا في مجال الحياة الفكرية والفلسفية فحسب ، بل في مجال الحياة الاجتماعية والخلقية ، ففي هذا المجال يظل اليــافع محتفظاً بضروب الكرم النفسي التي كان عليها مراهقاً . ويظل متعلقاً بحريته اعمق التعلق ، حساساً للعدالة احساساً بيناً ، مستعداً للتضحية ومنح النفس كاملة . ولهذا نراه اول من يتقدم للحرب ، ولهذا نرى اكثر الجنود استعداداً للتضحية بحياتهم اولئك الشبان الذين تملأ الأيام مستقبلهم . ولا عجب ان نلفي القضايا الإنسانية الكبرى مما تحياه الشبيبة المتوقدة ، وان نجد هــذه السن سن العواطف السياسية العنيفة ، سن محبة الأعمال الواسعة والمعتقدات الثورية الكبرى . بل لا غرابة اذ وجدنا اليافع يشعر في قرارة نفسه كأنه قادر على ان يهز الأكوان .

من هنا ندرك ان التطور السوّي للإنسان يجعله حاملاً للقيم ، مجدداً لحياة مجتمعه عن طريق هذه القيم . انه عاجز عن بلوغ حالة السلامة والاستواء النفسي في رشده وكهولته وشيخوخته اذا لم يعرف ان يهتز للقيم الإنسانية يافعاً . ان في وسعنا ان نقول ان من لم يعرف ان يكون يافعاً ، وان يحمل معه الى سن الرشد صبوات هذه السن ، لن يعرف ان يكون راشداً سوياً أو كهلاً سوياً أو شيخاً سوياً . وكما انه من المقرر ان الذي لم يقيض له ان يكون طفلاً وان يحيا حياة الطفولة لا يتأتى له ان يكون راشداً ، من الصحيح كذلك ان من لم يعرف ان يكون يافعاً فلن يعرف ان يكون انساناً سوياً.أفلا يصدق في هذا المجال قول الشاعر « فيني Vigny » : « ان الحياة الكبيرة هي فكرة سن الشباب وقد تحققت في سن الرشد » ؟ بل في وسعنا ان نردد ما يقوله بعضهم في وصف كبار الرجال وعباقرة الإنسانية : « انهم مراهقون الى الأبد » .

والنتيجة الأولى التي نود ان ننتهي اليها هي ان المجتمع السوي هو المجتمع الذي يعرف هذا الجيل من الشباب المؤمن بالقيم المتوثب لها العامل على اذاعتها وبثها . وهو يتعرض في مقابل ذلك الى مخاطر كبرى في وثبته الحيوية عندما تشيخ شبيبته قبل الأوان . وحيوية المجتمع تقاس بمقدار ما يملك شبابه من توثب الى القيم الإنسانية وتوفز الى المعاني الروحية .

والنتيجة الثانية التي نود بعد هذا ان نصل اليها هي ان مثل هذا التطور السوي للأجيال الاجتماعية لا يتحقق

دوماً . وان مثل هذه الصفات الروحية التي تغذي بهـا الأجيال اليافعة قيم المجتمع ومبادئه لا تيسر لجميع من يبلغون سن اليفع . فهنالك بين هؤلاء اليافعين من تنقطع انفاسهم في المعركة ، او من تستهويهم منذ طور مبكر المطامع العادية او الميول المادية الخسيسة او المتع السمجة ، او من يخضعون قبل الأوان لما تدفع اليه الحياة من مداراة ورياء ، فإذا بهم يعرفون جفاف الإنسان الكهل وهم ما يزالون بعد شباباً . ومعنى هذا كله ان جيل الطليعة يستند دون شك الى اساس قـوامه السن والعمر ، غير انه لا يقف عند حدود هذا الأساس . وصفات جيل الطليعة هي دون شك صفات اليافعين بالدرجة الاولى ، ولكنهـا لا تقتصر عليهم ، كما لا تشملهم كلهم . ويظل التعريف الصحيح لجيل الطليعة تعريفاً يتجاوز العمر الزمني ويظل من الصحيح دوماً ان ثمة كهولاً وشيوخاً يمثلون الطليعة لأنهم ما يزالون يغتذون بقيمها ، ولأن وعيهم الروحي ظل اقوى من التجمد . كما ان ثمة شباناً يجانبون مبادىء الطليعة ومفاهيمها ، لأنهم شاخوا قبل الآن وجف نسغ حياتهم في مهده .

ان جيل الطليعة يحمل معنى نفسياً وروحياً قبل ان يحمل معنى زمنياً . انه جيل المباديء والقيم المجددة للمجتمع ، انه الوصي على رسالة الإنسان ، في اي عمر كان . انه جيل التاريخ ، الجيل الذي يتكلم باسم المستقبل ، باسم الخلود . لدى هذا الجيل ينفتح الإنسان على الحرية ، على

جيل التاريخ ، الجيل الذي يتكلم باسم المستقبل ، باسم الخلود . لدى هذا الجيل ينفتح الإنسان على الحرية ، على المطلق ، ويظل دوماً فوق الشروط الواقعية والاعتبارات المؤقتة . وعنده تأخذ البطولة معناها العميق ، حين تغدو إنكاراً لكل تبرير .

وعلى عاتق هذا الجيل تقع مهمة دفع المجتمع الى أمام ، وهو الذي يقوى على ان يقـود المجتمع ويطوره ، لأنه استطاع ان يتجاوزه وان يعلو فوقه ، ليرقى من خلاله الى الحياة الروحية الاصيلة .

واذا نحن اردنا ان نبحث عن الصفات الاساسية المقومة لهذا الجيـل استطعنا ان نردها في نهاية الأمر الى صفتين اساسيتين : اولاهما انفصاله عن الفساد والثانية ايمانه بواقعية المثل الاعلى .

١ ـ الانفصال عن الفساد

اما الانفصال عن الفساد فلا شك انه صفة مميزة اساسية لجيل الطليعة فجيل الطليعة لا يرهب الفساد القائم ولا يبهر به فيستسلم له أو يقف مكتوف الأيدي امامه . انه لا يخاف الفساد ، ويظل يرمقه شزراً ، ولا تراوده نفسه في لحظة من اللحظات أن يهادن هذا الفساد فضلاً عن ان يستغله .

ان موقفه موقف مباين كل المباينة لضربين من الاستجابة للفساد :

الأول استثمار هذا الفساد واستغلاله والحياة على حسابه.

والثاني الاستسلام له وإلقاء السلاح امامه .

ذلك انه مؤمن بالقيم الإنسانية السليمة ، وايمانه هذا يجعله يفهم الفساد فهماً خاصاً : انه يراه هيناً سهلاً ، ويرى القضاء عليه ميسراً لمجرد إنكاره . فهذا الفساد

يقوى ويستشري بمقدار ما يتم الاستسلام له ، وعند ذلك يغدو اشبه بكتلة الثلج التي تزداد ضخامة كلما تدحرجت، او اشبه بالدوائر المنداحة في سطح الماء التي تزداد اتساعاً لحظة بعد لحظة . اما اذا تم الإمساك بالخيط الممسك للفساد، انفرط العقد من اصوله . والإمساك بهذا الخيط الرائد لا يكون الا عن طريق الموقف الروحي المصمم على تغييره، الفاضح له ولآليته .

ذلك ان جيل الطليعة يبدأ في هذا المجال حيث ينبغي ان يكون البدء . انه يبدأ بأن يحارب الفساد في ذاته وفي نفسه ، ويجرب ان ينفصل هو أولاً عن الفساد القائم ، ليقوى عند ذلك على تغييره . انه جيل انفصل عن الجيل القديم في كيانه الروحي وجوهر وجوده ، ولهذا فهو قادر على ان يحارب فساده وينتصر عليه . لقد عرف هذا الجيل ان يخرج من الفساد ، ولهذا يشعر بالقدرة على ان يُخرج منه غيره . لقد تجاوز هذا الجيل ، بكلمة واحدة ، مرحلة الانقياد والاتباع ، ورقى الى مرحلة الإبداع .

ومن هنا كان موقف جيل الطليعة موقفاً جذرياً لا يعرف انصاف الحلول . انه يطل دوماً على افق القيم الإنسانية الخالدة ، ويرى ان اللحاق بهذا الأفق مطلب متصل مستمر لا تجدي فيه الا الجهود الدائبة الصبورة . انه جيل جاوز الحدود والقيود التي تشده الى الحمأة وتغريه بالمهادنة ، لأنه ربط مصيره بالقيم ذاتها لا بما تؤدي اليه هذه القيم

من منافع وثمرات عابرة . لقد جعل متعته ان يصارع الحياة لتُمنح له الحياة . لقد صمم على ان يغالب الواقع بالحقيقة .

٢ ــ الايمان بواقعية المثل الاعلى

ومن هنا نصل الى الصفة الثانية المقومة لجيل الطليعة . إنه جيل آمن ان المثل الاعلى واقع أقوى من أي واقع ، وأحفل بمعاني الواقعية من أي شيء سواه . إنه يدرك ان الافكار الكبرى ، التي بدت بعيدة عن الواقع لكثير من معاصريها ، هي التي غيرت مجرى التاريخ ورسمت صورة الحضارات الانسانية . انه يفهم أعمق الفهم ان التقدم ان كان يعني شيئاً فهو يعني جر الواقع القائم الى واقع واجب يعلو عليه في مراتب القيم .

على ان جيل الطليعة يدرك في الوقت نفسه ان المثل الاعلى لا يكون جديراً بهذا الاسم إلا اذا صدر عن الواقع ليرقى به . ذلك أن الهدف الذي ينبغي ان يُرسم لمجتمع معين ، هو من قلب واقع هذا المجتمع وطبيعته . إنه يستند الى المعرفة العلمية الموضوعية بشرائط حياة هذا المجتمع وشرائط نموه وتقدمه ، انه قانون واقعي للواجب. والمثل الاعلى الذي ينسى جذوره الواقعية ، يغدو خيالاً ووهماً . ولا يستقيم المثل الاعلى الا اذا عرف الواقع وأدرك

من خلال معرفته لهذا الواقع الاتجاه الممكن للمثل الاعلى. ان دراسة الواقع تقدم للمثل الاعلى خارطة ما هو ممكن، وتجعله بذلك مثلاً أعلى واقعياً، مهما يبدو في هذا اللفظ من تناقض ظاهر. أوليست الصبوة الى الامثل شيئاً في صلب الواقع؟ أوليست الاهداف المثلى لغة تنطق بهـا جوارح الواقع الحي ان نحن استنطقناها؟

وهكذا ندرك ان جيل الطليعة جيل انعقدت لديه الصلة الوثيقة بين الواقع والمثل الاعلى. انه غير مصاب بالعشى حتى لا يرى في الواقع إلا وجهه السيء. بل هو مزود بنور القيم، ذلك النور الذي يكشف له عن صورة الواقع المثلى، ويجرد له الواقع الظاهر من إهابه السطحي ليظهره له في جوهر وجوده وواجب كيانه.

لقد قلنا ان جيل الطليعة هو الذي يحمل بالدرجة الاولى قيم اليافعين او التي ينبغي ان يحملها اليافعون. غير ان هذا ينبغي ألا يخيل الينا ان هذه القيم لا تشتمل على نظرة الى الواقع، او لا تحاول ان تضم اليها هـذه النظرة. فالحق ان الكائن لا يصل الى التطور السوي السليم إلا اذا أدرك جميـع مستويات الوجود. والوجود الى جانب كونه قيمة ومثلاً أعلى، واقـع قائم وانحراف عن المثل العليا في كثير من الاحيان. والموقف السليم من هـذا الوجود هو الموقف الذي يشد الواقع الى المثل الاعلى، دون ان يقطع الصلة بين هذا المثل الاعلى والواقع. ومن

شرارة هذا اللقاء بين الواقع والمثل الاعلى يصدر السلوك المؤمن المطمئن لرجل الطليعة . انــه يشرئب الى السماء ورجلاه مطمئنتان الى الارض . انــه يعرف ان يصارع الواقع دون ان يصرعه هذا الواقع . والواقــع يصرعه في إحدى حالين : يصرعه اذا استسلم له وعدّه غاية المطاف ونهاية النهايات ؛ ويصرعه اذا تنكر له ، فلم يعرفه ولم ينطلق منه في وثبته المثالية . وفي مقابل ذلك ، يكون النصر لجيل الطليعة اذا توافر له شرطان : الانقلاب الداخلي العميق على الواقع انقلاباً ينبعث من ذاته وأعماقــه ، وإدراك الواقع إدراكاً يمكنه من تبين وسائل تغييره .

في مثل هذه الشروط يغدو العمل للمثل الاعلى عملاً لا يلين ، لأنه مزود بالايمان وبالنجع معاً . ان الايمــان المؤمن بنجعه سمة جيل الطليعة ورائده .

أفلا نستطيع بعــد هذا كله ، وبعد الذي رأيناه في حديثنا عن الصلة بين الفرد والمجتمع ، ان ننظر الى جيل الطليعة كجيل جعل من اندماجه مع المجتمع وسيلة لتحرره وانطلاقه شطر القيم الروحية والانسانية الخالدة ، فلم يقف عند حدود ما يمليه عليه المجتمع ، بل أدرك روح هذا المجتمع وصبواته ، فرقى منه الى هذه الصبوات ؟ أفلا ندرك ههنا تحت نور جــديد معنى قولنا ان الانسان لا يكون إنساناً إلا بفضل المجتمع ، كما لا يكون انساناً اذا لم يسيطر على هذا المجتمع ويتجاوزه ؟ أفــلا ندرك من

خلال هذا كله حقيقة رسالة الانسان : انه كائن عضوي في البداية ، ولا بد له كيما يتحرر من العلائق العضوية الخالصة ويتجـه شطر وجوده الروحي الانساني من ان يتصيّر مجتمعه ، غـير أنه لا يصل الى التحرر الروحي الكامل الا اذا انفصل عن المجتمع ليطل من فوقه ، ليفهمه فهماً جديداً ويريده ارادة جديدة ؟ وهكذا يستبين لنا ان الرسالة الاخيرة للانسان القمينة بأن ترقي به الى أعلى مراتب الوجود الانساني ، هي رسالة الانفصال عن المجتمع من اجـل الاتصال به ، هي رسالة الوصل بعد الفصل . انها الاتصال بالمجتمع من خلال أفق الوعي الانساني العميق الشامل الذي يحاول دومـاً ان يتجاوز الواقع ، بل ان يتجاوز ذاته ، واضعاً مثله الاعلى أمامه لاوراءه .

وجيـل الطليعة هو الجيل الذي تتجسد فيـه رسالة الانسان هذه ، ويتجسد فيـه بحث الانسان الدائب عن مصيره العميق ووجوده المليء ، ليجعل من هذا المصير معيار عمله لإصلاح الواقع .

فهل نغلو بعد هذا كله ان قلنا ان جيل الطليعة هو وحده الذي يبلغ ذروة التطور الانساني ، فلا يقف في مراحل الطرر قبل ان يبلغ نهايتها . ولا ينكص على عقبيه عائداً الى مرحلة أولية سطحية في التطور ، مرحلة الحاجة المباشرة او الرضا بالواقع النفعي ، او الاستسلام للحياة الحيوانية الخالصة ، بل يعشق دوماً الذرى وما في الذرى من رؤى ، فلا يرضى الا ان يحقق كامل وجوده ، ولا يطمئن ولا يستقر على حال قبل ان يتصل بالمبادىء العليا للوجود ليجعل منها شعار وجوده ومبرر سلوكه ؟

المجتمع العربي والطليعة العربية

تلك هي بنية الطليعة ورسالتها في أي مجتمع . انها خلاصة ما في مجتمع من المجتمعات من قوى القدم والصبوة الى المثل الاعلى والرغبة في مجاوزة الحدود والقيود . انها تمثل خير جواب يجيب به مجتمع من المجتمعات على تحدي الواقع . واذا ذكرنا بهذا الصدد ما يقرره مثل « توينبي » حين يرى ان تحدي الواقع هو النقطة الأولى في انبعاث الحضارات ، ادركنا ما للطليعة من شأن كبير في خلق الحضارة وإغنائها . اذ لا بد للتحدي من استجابة ظافرة عليه ، على حد تعبير توينبي ايضاً . وهذه الاستجابة الظافرة هي الوثبة الحيوية الكبرى التي تؤدي الى خلق الحضارة . وقوام هذه الاستجابة ذلك « الاعتكاف » الذي اشرنا اليه والذي تقوم به الطليعة الواعية ، لتحقق بغده « العودة » ، العودة الى هداية الأتباع وتوجيههم . والاعتكاف كما ندرك بالبداهة اعتكاف روحي ، يعيد فيه رجال الطليعة النظر في حياة مجتمعاتهم ومباديء هذه الحياة ، ويرسمون الصورة المثلى التي ينبغي ان تكون عليها هذه المجتمعات اذا ارادت الخلاص . او ننسى في هذا المقام اعتكاف عدد من الانبياء والرسل ، انفصالهم وعزلتهم ، ليعودوا الى مجتمعاتهم مزودين بالقيم التي اتصلوا بها بنتيجة ذلك الانفصال ؟ او ننسى اعتكاف النبي العربي في غار حراء قبل النبوة ؟ او لم يبدأ كل دين

افلا ندرك بعد هذا وفوق هذا ان حيوية مجتمع من المجتمعات تقاس بمقدار توافر جيـــل الطليعة فيه ، وان قدرته على الانبعاث وبناء الحضارة معقودة بقدرة هـــذا الجيل ؟ بل لنمض تـوآ الى قلب الموضوع لنقول : ان

الامة العربية اليوم ، التي تنبعث من رقادها وترسم خطوط نهضتها وتحاول متابعة رسالتها ، تنظر الى جيـــل الطليعة هذا ، ويرتبط مصير كل آمالها ببنية هذا الجيل وغزارته . هذه الحقيقة التي ينطق بها الواقع العربي من اقصاه الى ادناه هي التي حملتنا على كتابة ما نكتب عن الجيل العربي الجديد . فنحن اذ نتعرض للبحث في مسألة هذا الجيل ، نجد انفسنا امام مسألة المسائل في الحياة العربية كلهـــا ، وندرك اننا ننطلق مباشرة الى قلب المشكلات التي يتعرض لها المجتمع العربي .

ان بحثنا هذا يعني شيئاً واحداً لا ثاني له : وهـــو ايماننا ان مصير الامة العربية وقفٌ على قوة الطليعة فيها ، وان العناية بتكوين هذه الطليعة وتعهدها هو الواجب الاول الملقى على عاتقنا ، قبل أي واجب آخر . ان ما سوى ذلك تابع وملحق . اما الأصل فههنا : انه في قوة الطليعة وحيويتها وتعهدنا لها .

ان مشكلة الانبعاث العربي ، كمشكلة انبعاث أي حضارة ، ليست مشكلة تقدم فني او صناعي او امتلاك بعض الوسائل والادوات ؛ انهـــا مشكلة روحية فكرية بالدرجة الاولى . واذا لم تُيسر لهذا الانبعاث الشعلة القادرة على تغذيته ، والوقدة اللازمة لاستمرار حيويته وعطائه ،

فلا بد ان يقصّر عن مداه وينكص على اعقابه . ان التأخر في الميادين الفنية والصناعية وغيرها من الميادين التي

يدعوها بعضهم باسم الميادين « التقنية » ليس سبباً لضمور الحضارة وتراجعها ولكنه نتيجة . ان انهيار الحضارة هو الاصل ، والتأخر في الميادين الأخرى نتيجة وفرع وانهيار الحضارة ظاهرة روحية قبل اي شيء آخر . انها تعني انهيار الدفقة الحيوية التي تغذي الحضارة بالوقود . وهذه الدفقة الحيوية هي من عطاء الطليعة وابداعها . ان الوثبة الروحية التي خلقها الاسلام هي التي خلقت فيما بعد الحضارة العربية الزاهرة ، وولدت ما ولدت من تقدم في مختلف جوانب الفنون والصناعات والاكتشافات . وعندما خمدت تلك الوثبة ، بتأثير عوامل لا مجال الى الحديث عنها ، لم ينفع الحضارة العربية تقدمها الفني والتقني ، وانهارت امام اعداء كانوا أقل منها عدة وعتاداً وتقدماً . لقد انتصرت الحضارة العربية دوماً بروحها ، بقوتها الروحية ، بالجنود التي « لا ترونها » ، جنود الايمان والعقيدة .

قد يعترض معترض في هذا المجال فيقول ان الطليعة تتكون ولا تصنع ، وانها جواب طبيعي تقوم به الامة الحية على تحدي الظروف لها ، ولسنا في حاجة بالتالي الى الحديث عنها والى الحديث عن رعايتها وتعهدها خاصة . فإما ان تكون الامة جديرة بالحياة ، وعند ذلك تظهر فيها الطليعة التي تجسد بذور الحياة المتوقدة فيها واما ان تكون امة منطفئة القوى ، لا تجود بومضة ، وعند ذلك تنطفيء الذبالة وتنعدم الطليعة .

وجوابنا على هذا الاعتراض يمكن ان يرتد الى امور ثلاثة :

١ – انه اعتراض يقع في دور فاسد ، ويعود من جديد الى مسألة تجاوزناها ، وهي اي من الفرد والمجتمع خالق للآخر مكوّن له ؟ وقد رأينا حقيقة هذه الصلة المتبادلة بين الفرد والمجتمع ، وبينا ان المجتمع يسهم في خلق افراده الذين يتجاوزونه فيخلقونه من جديد .

٢ – ثم ان القول بأن كل مجتمع يحتوي على العدد الذي يستحقه من العباقرة كما يحتوي على العدد الذي يستحقه من المجرمين ، قولٌ يشتمل على جانب كبير من الصحة اذا فهمناه بمعناه الصحيح . فقد بينت الابحاث الحديثة خطأ تلك النظرة التي كانت تعتبر العبقرية شيئاً يند عن التحليل وعن التكوين ، وانها بالتعريف القوة التي تظهر دوماً وأبداً مهما تكن العوائق دونها ، بل بسبب العوائق والصعاب في معظم الحالات . ولم تعد الدراسات العلمية ترى في العباقرة اناساً من طينة خاصة ، بل اخذت تربط العبقرية بما هو سويّ ، وتبين خاصة اثر الرعاية الاجتماعية للعبقرية في ظهور العبقرية ونموها . وقد وقف باحث مثل « كاتيل Cattell » الاميركي عند هذه الناحية فبين استناداً الى احصاءات دقيقة ، ان ولاية الماساشوستس Massachussetts في الولايات المتحدة اعطت من العلماء ما يربو ٨٤ مرة على ما اعطته ولاية الميسيسيبي Mississipi .

ووصل من وراء هذا الى النتيجة التالية : «ان هذا لا يعني ان القابليات العلمية في جنين ابن الماساشوستس هي اقوى ٨٤ مرة منها في جنين ابن المسيسبي ، بل يعني ان في الولاية الأولى عوامل ميسرة لنمو المواهب غير موفورة في الولاية الثانية » .

ومعنى هذا ان العبقرية اذاً في حاجة الى تعهد ورعاية وانها لا تنبت في المجتمع كما ينبت الفطر ، بل تحتاج الى عناية المجتمع بها . ومن هنا كان من الصحيح ان كل مجتمع يملك من العباقرة بمقدار ما يستحق ، اذا فهمنا هذا الاستحقاق بمعنى الجهد الذي يبذله لتيسير شروط النمو والازدهار لهذه العبقرية .

وما يصدق على العباقرة يصدق على رجال الطليعة . انهم ايضاً في حاجة الى رعاية المجتمع وتعهده . وبمقدار ما يعي المجتمع شأن رجال الطليعة هؤلاء ويعمل بالتالي على تيسير السبل امامهم ، يسهم في تكوين الطليعة ويقوي بنيانها . وعندما يدرك مجتمع كمجتمعنا العربي بالتالي دور الطليعة ويؤمن بهذا الدور ، يجد الوسائل الميسرة التي تساعد على القيام بهذا الدور وعلى نموه وانتشاره . اما عندما يتجاهل هذا الدور او يهمله ، فمن الطبيعي ان يتقلص اثر الطليعة وان يكون عملها محدود النطاق بطيء الجدوى .

٣ — ومن هنا ندرك الرد الثالث الذي نرد به على المعترضين . ان الطليعة تزيد وتنقص ، وقد تكون في مجتمع

من المجتمعات قلة لا تكاد تُرى ولا تكاد تقوى على الظهور، وعند ذلك تكون عرضة للانقراض أو للعطالة أو للتحطيم من قبل الاكثرية . وقد تكون في احيان اخرى ، على كثرتها ، مقصّرة عن كامل المدى الذي يمكن ان تعطيه للمجتمع ، وذلك لعدم تيسير السبل لانطلاقها ضمن نظم المجتمع ومؤسساته . وواجب المجتمع دوماً في مثل هذه الأحوال أن يدرك ما يتعرض له من مخاطر البؤس والجدب إن هو حبس هذه الطليعة عن مجالاتها ولم يطلق لها كامل قواها ولم يستثمر إمكانياتها حتى الذماء . ويقوم المجتمع بهذا الواجب بمقدار ما يعي اهمية الطليعة وقيمتها، ومن مهمة الطليعة بالتالي ان تنبهه الى هذا الشأن وتثير اهتمامه به .

وهكذا ندرك في النهاية ان عناية المجتمع بالطليعة ليس ضرباً من الجهد الذي لا مبرر له ، ويستبين لنا بالتالي واجب يقع على الطليعة نفسها ، وهو تذكير المجتمع دوماً بدور الطليعة وبقيمها ومبادئها ، بل ضرب المثل والقدوة على أهمية هذا الدور . ان الطليعة تفقد وجودها اذا ذابت ضمن الواقع القائم واستسلمت له . اما اذا حافظت على كيانها وشخصيتها ، وعبرت عن موقفها المنعزل عن الفساد، بوسيلة من الوسائل ، ولو كانت هذه الوسيلة إنكار الفساد بقلبها وعدم الخوض فيه مع الخائضين ، فإنها بذلك تذكر المجتمع بشأنها وأهمية وجودها . إن قيمة الطليعة دوماً وأبداً،

كما قلنا ونقول ، هي في قدرتها على الانفصال عن الفساد ، والتحرر من خداعه ومغرياته . إن شأنها في مدى المناعة الداخلية التي تكتسبها ضد الفساد . إنه في ذلك الإيمان الصلب الذي عبر عنه الرسول العربي حين قال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او اهلك فيه ، ما تركته » .

وخلاصة ما نريد ان نخلص اليه في هـذا المجال ان الطليعة ، على كونها القوة الخلاقة المبدعة في المجتمع ، ليست اناساً من نجار خاص يجود بهم القدر او تقذف بهم المعجزات . انها تتكون من اناس فيهم ما في غيرهم من بني البشر من حاجات وقوة وضعف ، سوى انهم يغالبون انفسهم ، بفضل ما تكشّف لهم من وعي لم ييسر لغيرهم ، ويتجاوزون بالتالي ذواتهم ويحاولون ان يرقوا بها ليرقوا من خلالها بمجتمعهم . ان من الخطأ ان نكوّن عن مراتب النفوس البشرية فكرة تقيم بينها فوارق قاطعة حاسمة ، فوارق في الطبيعة لا في الدرجة كما يقال . لقد بينت الأبحاث الحديثة التي تعرضت لمسألة الصحة النفسية والمرض النفسي ، ان الانقطاع غير قائم بين حال الصحة وحال المرض .

فالمريض ليس انساناً يختلف في طبيعته اختلافاً كلياً عن السليم ، وبين الصحة والمرض درجات متصلة تلتقي فيها آخر درجات الصحة بأوائل درجات المرض . بل اننا لا نقع في الحياة العادية على انسان كامل الصحة النفسية ، كما لا نقع على انسان كامل الصحة الجسدية . ولا بد

للإنسان كيما يكون انساناً من حظ ادنى من الضعف والمرض . ان كل انسان سويّ يعاني من ضروب الصراع النفسي ، سوى ان الفارق بين السوي والمريض ان السوي لا يزال قادراً على مغالبة الصراع والارتفاع فوقه ، وايجاد حل له ، اما المريض فقد عجزت بنيته الضعيفة عن احتماله ، وكان ذلك الصراع اشد مما تطيق ، فلجأ الى المرض كمنقذ وحيد وكحل لم يبق سواه . وما نريد ههنا ان نتحدث عن هذه الصلة بين الصحة النفسية والمرض النفسي . وغرضنا من الاشارة اليها ان نقول بالمثـــل ان بين الأناس العاديين والأناس الأفذاذ صلات ، والانقطاع بين الفريقين غير قائم ، ولا نستطيع أن نذهب الى حد القول ان الأفذاذ اناس من طينة خاصة وطبيعة خاصة . بل نريد من هذا شيئاً اوضح في بحثنا ، وهو ان نبين ان الطليعة ، على كونها فئـــة مختارة قليلة ، تقوم بينها وبين جمهرة الناس حلقات اتصال ، ويظل باب الارتقاء اليها مفتوحاً على مصراعيه ، ويظل كل انسان يحمل امكانية انقلابه الى رجل من رجال الطليعة .

والنتيجة العملية هي النتيجة التي وكدناها ، نعني ضرورة اهتمام المجتمع اذاً بتعهد الطليعة واغنائها وتكوينها . ان كلنا يعلم كيف تلجأ المجتمعات الحديثة الى خلق صفوف خاصة بالموهوبين ، كما تلجـــأ الى خلق صفوف خاصة بالشواذ والمتخلفين . ومعنى هذا كله ان المجتمع ينبغي ان يعي مهمته التربوية الكبرى هـــذه ، وان يضطلع بمسؤوليته في تكوين الطليعة ورعايتها . ولا يكون هذا فقط بأن يرعى

هذا المجتمع تربية مثل هؤلاء الممتازين صغاراً عن طريق انشاء صفوف خاصة للممتازين والموهوبين ، بل الأمر يجاوز هذه العناية المباشرة الى انواع العناية غير المباشرة . فالعباقرة أولاً ليسوا هم الأذكياء الممتازين فحسب ، بل هم يتصفون الى جانب مزاياهم الذكائية بمزايا روحية وخلقية وطبعية . ومن الخطأ كما بيّن الباحثون ان نعرّف العبقرية بالنسبة الذكائية العالية ، كما اراد بعض الدارسين في الولايات المتحدة . وفي العبقرية الحقة جوانب تجاوز الذكاء العالي ، وتتغلغل في الطبع خاصة ، وتقوم على ما يبدو اولاً وقبل كل شيء بالانفعال ، بنوع من الانفعال يند عن التعريف ، هو المسؤول الأول عن العبقرية . ثم ان رجال الطليعة ليسوا وهؤلاء العباقرة شيئاً واحداً. صحيح ان ثمة تماثلاً كبيراً بين هؤلاء واولئك ، غير ان العبقرية ان كانت في معظم الاحيان شرطاً من شروط رجل الطليعة فهي ليست شرطاً كافياً . اذ لا بد ان ينضاف اليها نداء الرسالة ، والاهتزاز لذلك النداء . لا بد ان ينضاف اليها الإيماء برؤية كبيرة ، بهدف كبير . لا بد ان يحيط بها جو عامر من الاعتكاف الروحي العميق .

ومعنى هذا ان شروط ترعرع رجال الطليعة تجاوز الشروط الضيقة التي قد تشتمل عليها الحياة المدرسية . ولا بد بالتالي في هذا التعهد لرجال الطليعة ، ان تقوم الطليعة نفسها بتكوين الطليعة ، رغم ما يبدو في هذا القول من دور فاسد . ذلك أن الطليعة في مجتمع من المجتمعات اما ان تكون قلة معزولة لا يفسح امامها الا مجال عسير ،

وعند ذلك يكون اثرها محدوداً حتماً مهما تناضل في سبيل كسر السدود والقيود. واما ان تكون هذه الطليعة القليلة طليعة يعمل المجتمع على اغنائها وافساح مجال الانتشار امامها، وعند ذلك تقوى على تكوين طليعة جديدة ترفدها وتحل محلها فيما بعد، ويتم لها بالتالي التكاثر والاغتناء.

وهذا هو بالذات ما نعنيه برعاية المجتمع للطليعة. ان رعايته لا يجوز ان تقتصر على تعهد الأجيال الناشئة المتفوقة في ميادين المعرفة والذكاء، بل ينبغي ان تجاوز ذلك الى الاهتمام بنقل «نداء الرسالة» الى هذه الأجيال الناشئة. ونداء الرسالة لا ينقله انسان كحامله المؤمن به، لا يجيد نقله الا رجل الطليعة الذي ذاقه وعرفه. ومن هنا كان من الواجب ان يفسح المجال امام هذا النداء، امام هذا الصوت الصادر من اعماق الرسالة، لينطلق وليجمع حوله

الاجيال التي خلقت لحمله من جديد. ومن هنا بالتالي كانت مهمة المجتمع الحريص على نهضته وانبعاثه ان ييسر للطليعة هذا الانتشار الروحي الذي يقوى وحده على تكوين طليعة رافدة، طليعة جديدة. وتكون مهمة التيسير هذه أوجب، كلما كان المجتمع أمعن في التخلف وأحفل بالقيود والسدود.

وأول ما يتوجب على المجتمع في مهمة التيسير هذه، ان يعمل على إزالة الاسباب التي تجعل الأناس المهيئين لأن يكونوا من رجال الطليعة، يقصرون عن بلوغ هذا الشأو. فالجيل الناشيء يشتمل دون شك على بذور الطليعة المقبلة، وهو الماء المتجدد الذي يرفد المجتمع بالري الجديد. وهذا

الجيل الناشيء ، كما رأينا ، مدفوع بحكم جيله الزمني ، الى ان يكون جيلاً مجدداً ، جيلاً ينقلب على القيم البالية ويتجه شطر المثل العليا التي يهتز لها اليافعون خاصة كما رأينا . غير ان هذه الومضة التي يملكها جيل اليافعين الناشيء ، بعد ان تم تكوينه ، كثيراً ما تنطفيء ، كما رأينا . وكثيراً ما يغادرها صاحبها مع مغادرته لسن اليافعين : ولئن كان من الطبيعي ألا ينقلب جميع اليافعين الى رجال طليعة ، وان تأخذ بعضهم مغريات الطريق ، فمن الصحيح دوماً ان الغاية المثلى ان يستطيع أكبر عدد من اليافعين الاستمرار في منازعهم وصبواتهم ، ليحققوا في سن الرشد أفكار سن الشباب ، وليحملوا معهم الى سن المسؤولية والاضطلاع بالمهمات ، ضروب العزم التي انعقدت لديهم في سن غير مسؤولة إلا بمقدار . وقد قلنا ونقول ان رجال الطليعة مراهقون او يافعون الى الأبد ، يحملون معهم دوماً رؤى المثل العليا ، رؤى المطلق الذي لا يقبل بالنسبي ولا يلجأ الى المساومة على الحقيقة .

ولهذا كان من أهم ما يتوجب على المجتمع ان يساعد جيل الشباب على عبور منطقة الخطر بطمأنينة ، ان يمد يده له ليمكّن أكبر عدد ممكن من الانتساب الى جيل الطليعة ، او إدراك مقاصدها على أقل تقدير .

والآن اذا اتجهنا الى المجتمع العربي ؛ ما هي المهمات التي تترتب عليه تجاه جيل الشباب اذا اراد ان يصله بجيل الطليعة ويساعد أكبر عدد منه على ان يرفد الطليعة ويغنيها ؟

ان نقطة الانطلاق، في أي علاج، الكشفُ عن الداء.

فما هي الادواء التي تشكو منها شبيبتنا العربية والتي تجعلها تقصر عن ان تصل الى كامل ما يرتجى لها من تفتح ونمو؟

لن أتحدث ههنا عن الادواء المتصلة بتربيتهم عامة، وعن النقائص التي تشكو منهـا التربية العربية منذ نعومة الاظفار. وأود ان أقصر حديثي على جوانب التربيـة المتصلة بالتكوين الروحي الذي من شأنه ان يعدّ الشاب لأن يكون من رجال الطليعة او من المنتصرين لها.

ان هـذا التكوين الروحي للشبيبة العربية يشكو علة كبرى تتحلق حولها سائر العلل، هي الانقسام الروحي وتشتت الطاقة الروحية بالتالي. ان من البدهي ان تكون قوة الحياة الروحية لدى فرد من الافراد في وحدتهـا وانسجامها واتجاهها الى بؤرة واحدة. اما اذا كانت هذه الحياة الروحية منقسمة على نفسها غير قادرة على تكوين وحدة معتقداتها، فلا سبيل الى ان تغذي صاحبها بالدفقة اللازمة لاكمال نموه وارتقائه.

فماذا نعني بهـذا الانقسام في التكوين الروحي للشبيبة العربية في معظمها؟ ان الشبيبة العربية المعاصرة تقف على مفترق طرق كبير، وتخرج من معارك متباينة، وتتنازعها بالتالي مؤثرات شتيتة مختلفة. انهـا تخرج من مرحلة استعمارية ما تزال آثارها باقية في العقول والنفوس، وما يزال تشويهها الفكري قائماً. وهي تخرج من رقاد طويل نامت فيه الامة العربية عن أمجادها وحضارتها وانقطعت الصلة بينها وبين تلك الامجاد. وهي تخرج من هذا وذاك

في عصر مخيف ، عصر الذرة ، تتنازع فيه العقائد العالمية وتصطرع ، ويضطرب فيه الفكر في العالم كله ، وتعتصر فيه الحياةَ الروحية منازعُ شتيتة هائلة . وهي بعد هذا كله ، تصحو على نهضة عربية وليدة تريد ان تلحق بالركب وتسابق الزمن ، وتعيد الى الامة العربية كيانها .

فهل غريب بعد هذا كله ان نجد هذه الشبيبة منقسمة موزعة القوى ، وان نلفي تلك الثنائية بل ذلك التكثر والتعدد في حياتها الروحية ؟ أو ليس من الطبيعي ان تكون مهمتنا الاولى ان نجهد لتكوين الوحدة الروحية في هذه النفوس التي تقاسمتها المنازع ولعبت بها الرياح ؟ وما ندعي ان تحقيق هذه الوحدة الروحية في نفوس الشباب أمرٌ يسير يأتي بجرة قلم ، ولا نزعم ان في وسع انسان ان يدعي ان بيده مفتاح هذه الوحدة الروحية والعصا السحرية اللازمة لتحقيقها ؟ ان بناء النفوس لا يتم بوصفات سريعة ، وانما هو عمل دائب متصل ، يضع فيه كل مجاهد في سبيله حجراً . وما نريد ان نفعله في هذا البحث القصير ما هو إلا محاولة للاسهام في هذا البناء ، بل هو قبل هذا نداء يهيب بأولي الرأي للمشاركة في هذا البنيان الشاق .



تونس 1986